بسم الله الرحمن الرحيم

بك ألوذ

« اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ...»

اللقاء السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: روى مسلم في صحيحه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**».

هذه الدعوة شأنها عظيم وفوائدها لا حدّ لها ولا عدّ، وقد جمعت الخير كلّه؛ خيرَ الدنيا والآخرة، وهي تبين أثرَ إيمان العبد بأسماء الله تبارك وتعالى وصفاته في تحقيقِ العبودية لله، وتحققِ النجاة من الضلال والانحراف عن صراط الله المستقيم وسبيله القويم ودينه الحنيف.

قوله: «**اللهم لك أسلمت**» أي: استسلمت وانقدتُ لأمرك ونهيك، وقدّم الجارَّ والمجرور (لك) لإفادة القصر والاختصاص، أي: أسلمتُ لك وحدك لا لغيرك.

وقوله: «وبك آمنت» أي: بذاتك العلية وما يليق بها من صفات الكمال آمنت، أي: صدقت وأقررت، ويدخل في الإيمان به سبحانه الإيمانُ بكل ما أمر عباده بالإيمان به كالملائكة والرسل واليوم الآخر.

✍وفيه إشارة إلى الفرق بين الإيمان والإسلام.

وقوله: «وعليك توكلت» أي: فوضت أمري إليك دون غيرك، قال الله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}[الزمر:36]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق:3].

وقوله: «وإليك أنبت» من الإنابة، أي: رجعتُ إلى عبادتك وما يقرب إليك، وأعرضتُ عما سوى ذلك.

وقوله: «وبك خاصمت» أي: بك أحتجّ وأدافع، وبما أعطيتني من البراهين والحجج خاصمت أعداءك أعداء الدين بالبراهين القوية، وفلجتُ حجتهم بالحجج المتينة، وكل ذلك من الاعتصام بالله، {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[آل عمران: 101].

✍وأقاتل أعداءك بالحجة، والبيان، والسيف، والسنان.

وقوله: «اللهم إني أعوذ بعزتك» هو استعاذةٌ بصفة من صفات الله وهي العزة، وهي مشتقة من اسمه تعالى العزيز. والعز في الأصل: القوة والشدة والغلبة والمنعة، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ} أي: له القوة والغلبة.

■والعزّة يُراد بها ثلاثة معانٍ: عزة القوة والقدرة، وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، والرب تبارك وتعالى له العزة التامّة بالاعتبارات الثلاثة.

وقوله: «**لا إله إلاّ أنت**» شهادة وإقرار بتوحيد الله، ومعناها: لا معبود بحق إلاّ الله.

"أنَّ نوحًا قال لابنِه عند موتِه: آمرُك بلا إلهَ إلا اللهُ؛ فإنَّ السَّمواتِ السبعَ والأرَضين السبعَ لو وُضِعَت في كِفَّةٍ ووُضِعَت لا إلهَ إلا اللهُ في كِفَّة، رجَحَت بهنَّ لا إلهَ إلا الله".

وقوله: «**أن تضلني**» أي: من أن تضلني، وهو متعلق بـ (أعوذ بعزتك)؛ وفي هذا أن الهداية والضلال بيد الله -ﷻ- ، قال الله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}[الكهف:17]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الزمر:36]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ}[الشورى:46]، وقال تعالى: {مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[الأنعام:39].

وقوله: «**أنت الحي الذي لا يموت**» ثناء على الله تعالى بصفة من صفات كماله، وهي الحياة التامة المنزهة عن النقص والفناء، وذِكر النبي -ﷺ- اسم الله (الحي) متوسلا إلى الله به أن ينجيه من الضلال، يفيد أن إيمان العبد بهذا الاسم العظيم من أعظم أسباب حياة قلبه ونجاته من الضّلال، وهو من أعظم الوسائل المقرِّبة إلى الله تبارك وتعالى، ولكن بتحقيق الإيمان بهذا الاسم، وفهم دلالته، والقيام بما يقتضيه من عبودية وذلٍ وخضوع لله تبارك وتعالى.

وقوله: «**والجن والإنس يموتون**» تأكيدٌ لانفراد الله تعالى بكمال الحياة، وأن الاعتماد لا يكون إلاّ على الحي الذي لا يموت، وأما الأحياء الذين يموتون فلا يُعتمد عليهم فكيف بالأموات والمقبورين!!

✍أي أنت الحيّ لك الحياة الكاملة التي لا يعتريها أي نقص المتصفة بكل كمال، المستلزمة لكل صفات الذات، فحياته تعالى لا يعتريها نوم، ولا نعاس، ولا تبيد، ولا تفنى، والخلق كلهم، ميتون ومنتهون، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}، وقال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه}.

📃ومن سوى الله لا يخرج عن ثلاثة أحوال : إما حي سيموت ، أو حيٌ قد مات ، أو جمادٌ لا حياة له؛ وكل هؤلاء لا يستحقون شيئاً من العبادة ولا التوكل، قال الله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ}[الفرقان: 58] ، وقال تعالى: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[آل عمران: 2] .

✍قدم النبي -ﷺ- في دعائه، جملة من أجلّ العبادات، والمقامات العبودية للّه تعالى بين يدي دعائه توسلاً عظيماً، من تخصيص العبودية له تعالى من أعمال القلوب، والأركان، فبدأ بالإقرار الكامل له تعالى بالإسلام، والإيمان، والتوكل، والرجوع إليه في كل مهامه وشؤونه الدنيوية، والدينية، والدفاع عنه والمجاهدة لدينه بالحجة والقوة، مقدمة قبل سؤاله؛ ليكون أرجى في القبول.

✍ففي هذا الدعاء المبارك جمع في بداياته، وطياته ونهاياته، توسلين من التوسّلات العظيمة إلى الله تعالى: التوسّل بالعمل الصالح [كقوله: (اللَّهمّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت...)]، والتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا [كقوله: (أنت الحي الذي لا يموت...)]؛ لبيان أهمية الاستعاذة من الضلالة، فإنها تورد الموارد المهلكة، وتضيع الدين والدنيا والآخرة، وفي العصمة منها، النجاة من كل مرهوب، وحصول كل مرغوب.

قال النووي رحمه الله: «معنى (أسلمت): استسلمت وانقدت لأمرك ونهيك، (وبك آمنت): أي صدقت بك وبكل ما أخبرت وأمرت ونهيت، (وإليك أنبت) أي أطعت ورجعت إلى عبادتك؛ أي أقبلت عليها ، وقيل معناه رجعت إليك في تدبيري؛ أي فوضت إليك، (وبك خاصمت): أي بما أعطيتني من البراهين والقوة خاصمت من عاند فيك وكفر بك ، (وإليك حاكمت) أي كل من جحد الحق حاكمته إليك وجعلتك الحاكم بيني وبينه لا غيرك مما كانت تحاكم إليه الجاهلية وغيرهم من صنم وكاهن ونار وشيطان وغيرها، فلا أرضى الا بحكمك ولا أعتمد غيره».

ثم إن في هذه الدّعوة جماعَ ما تكون به نجاة العبد من الضلال، فلو قال قائل: الدّنيا فيها مضلات كثيرة وفتن متنوعة وصوراف عن الطاعة عديدة؛ فما الذي أسلم به من الضلال؟

يقال هذه الدعوة المباركة وافية بتحقيق هذا المطلب، لكن بفقهها وحسن دعاء الله تبارك وتعالى بها، فالسلامة من الضلال –كما تدلّ عليه هذه الدعوة– بأمرين:

■الأمر الأول: الالتجاء الصادق إلى الله أن يعيذ عبده من الضلال مع اليقين أن الأمر بيده وطوع تدبيره، قال: «أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»، فالأمر بيده سبحانه، {مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، وفي الحديث القدسي يقول جلّ وعلا: (كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) أي: اطلبوا مني الهداية.

■الأمر الثاني: مجاهدة النفس على تحقيق ما خُلقت له، وتأمَّل هذا في التوسلات التي بُدئت بها هذه الدعوة: « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ» ؛ فهذه خمسة أمور يتوسل العبد إلى الله بها، لكن مع التوسل بها لا بد من مجاهدة النفس على تحقيق شرائع الإسلام وتعلمها والقيام بها، وعلى القيام بحقائق الإيمان؛ تعلمها وعمارة القلب بها، وعلى حسن الصلة بالله والاعتماد عليه وتفويض الأمور كلها إليه في جميع أحوال العبد وأموره الدينية والدنيوية، وعلى الإنابة إلى الله وهي الرجوع إلى الله، وكل بني آدم خطّاء، فعند أدنى خطأ يبادر إلى الإنابة والرجوع إلى الله –ﷻ– مخلصا لله في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته؛ فيتوسل إلى الله بهذا الإيمان والعمل الصالح أن ينجيه من الضلال.

✉ونظير هذا ما دل عليه قوله تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل:5-10]

فقد جمعت الأمرين:

■الأول: التوكل على الله، وحسن الالتجاء إليه، وطلب الهداية منه؛ لأن الأمر بيده سبحانه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا كان الصحابة –رضي الله عنهم– يقولون: "لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا"، وفي رواية: "ولا تصدقنا ولا صلينا"، فالأمر بيد الله { يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ، وهي منَّته سبحانه على من شاء من عباده.

■الثاني: مباشرة الأسباب التي تنال بها الهداية، «أَعْطَى» «وَاتَّقَى» «وَصَدَّقَ» هذه أسباب يفعلها العبد ويجاهد نفسه على تحقيقها، والله تعالى يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[العنكبوت:69].

فتحصَّل من هذا أنَّ السعادة في الدُّنيا والآخرة لا تُنال إلا بتحقيق هذين الأمرين والقيام بهذين المطلبين: مجاهدة النفس على الأعمال، مع الاستعانة بالله جلَّ وعلا ودوام سؤاله.

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ τ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شيء فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). فقوله -ﷺ- : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله» كلام جامع مشتمل على ما فيه سعادة العبد في الدنيا والآخرة .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «فَمَدَارُ سَعَادَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ عَلَى الْحِرْصِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْأُمُورِ النَّافِعَةِ مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَمَتَى حَرَصَ الْعَبْدُ عَلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ وَاجْتَهَدَ فِيهَا وَسَلَكَ أَسْبَابَهَا وَطُرُقَهَا وَاسْتَعَانَ بِرَبِّهِ فِي حُصُولِهَا وَتَكْمِيلِهَا؛ كَانَ ذَلِكَ كَمَالَهُ وَعُنْوَانَ فَلَاحِهِ. وَمَتَى فَاتَهُ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ فَاتَهُ مِنَ الْخَيْرِ بِحَسَبِهَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ حَرِيصًا عَلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ، بَلْ كَانَ كَسْلَانًا، لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا. فَالْكَسَلُ هُوَ أَصْلُ الْخَيْبَةِ وَالْفَشَلِ، فَالْكَسْلَانُ لَا يُدْرِكُ خَيْرًا، وَلَا يَنَالُ مَكْرُمَةً، وَلَا يَحْظَى بِدِينٍ وَلَا دُنْيَا، وَمَتَى كَانَ حَرِيصًا، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ؛ إِمَّا عَلَى أُمُورٍ ضَارَّةٍ، أَوْ مُفَوِّتَةٍ

لِلْكَمَالِ، كَانَ ثَمَرَةُ حِرْصِهِ الْخَيْبَةَ، وَفَوَاتَ الْخَيْرِ، وَحُصُولَ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ، فَكَمْ مِنْ حَرِيصٍ عَلَى سُلُوكِ طُرُقٍ وَأَحْوَالٍ غَيْرِ نَافِعَةٍ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْ حِرْصِهِ إِلَّا التَّعَبَ وَالْعَنَاءَ وَالشَّقَاءَ. ثُمَّ إِذَا سَلَكَ الْعَبْدُ الطُّرُقَ النَّافِعَةَ وَحَرَصَ عَلَيْهَا وَاجْتَهَدَ فِيهَا لَمْ تَتِمَّ لَهُ إِلَّا بِصِدْقِ اللُّجَإِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى إِدْرَاكِهَا وَتَكْمِيلِهَا، وَأَنْ لَا يَتَّكِلَ عَلَى نَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، بَلْ يَكُونُ اعْتِمَادُهُ التَّامُّ بِبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ عَلَى رَبِّهِ؛ فَبِذَلِكَ تَهُونُ عَلَيْهِ الْمَصَاعِبُ، وَتَتَيَسَّرُ لَهُ الْأَحْوَالُ، وَتَتِمُّ لَهُ النَّتَائِجُ وَالثَّمَرَاتُ الطَّيِّبَةُ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَأَمْرِ الدُّنْيَا».

✍الحاصل أن العبد مفتقرٌ إلى الله أن يعيذه من طريق الضلال، وأن يأخذ بناصيته إلى طريق الهداية وأن يثبته على الحق، وأن يمن عليه بالتوفيق والهداية والسداد، وأن يجعله من أهل السعادة أهل الجنة، مفتقر إليه في كلِّ حركة وسكون، مفتقر إلى عفو الله سبحانه ورحمته، فليس أمامه إلا أن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى في كلِّ وقت وحين أن يثبته ويعينه ويسدِّده وأن يعيذه من الضلال.

روى الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عن مطرِّف بن عبد الله ابن الشخِّير قال: «تذكرتُ ما جماع الخير؛ فإذا الخير كثير الصوم والصلاة، وإذا هو في يد الله -ﷻ- ، وإذا أنت لاَ تقدر على ما في يد الله -ﷻ- إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء». ومع الدعاء لابد من بذل الأسباب والصبر على فعلها ومجاهدة النفس مجاهدة تامة على لزوم طريق الخير، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[آل عمران:200]، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} . فهذا أصل شريف وعظيم لابد من فهمه، ولا نجاة للعبد في هذه الحياة إلا بتحقيقه، والتوفيق بيد الله وحده لا شريك له .

وأسأل الله –ﷻ– أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب.

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.